د.بنت الشاطئ: شاهدة عصر

د.نادية مصطفى

مقدمة: المنطلق والمنهج:

تعد القراءة في فكر أعلام الأمة ورموزها مهمة ضرورية وحيوية متعددة الأبعاد والغايات. وعلى رأسها تأتي غاية إبراز منهج الاقتراب من قضايا الأمة في عصرها الراهن. وتزيد أعباء المهمة . وهي متعددة في الأصل . حين يكون العَلَمُ موسوعيا ومتخصصاً فيما قد يبدو للبعض أنه ليس له علاقة بواقع العصر ومشاكله، أي متخصصاً في تراثنا الإسلامي بروافده المتنوعة الثرية: اللغة ، الأدب، الفقه ، التاريخ الإسلامي، السيرة ، الحديث وهذا هو حال الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ– رحمها الله– فهي الفقيهة، المحدثة، الأديبة، اللغوية.

وإذا كانت أعمال الندوة غطت هذه الجوانب من إنجاز وإبداع أستاذتنا التي سجلتها في كتبها ودراساتها العلمية، فما كان يمكن أن تنفض الندوة : دون التصدي لجانب من إبداعها تحت عنوان : شاهدة عصر والتي سجلتها في قناة أخرى هي المقال الصحفي.

كيف جاءت شهادة هذه العالمة بالتراث الإسلامي على عصرها؟ فإذا كانت الفجوة التي بدأ حفرها منذ قرنين مع بداية تغريب الأمة قد استحكمت الآن بين الفقيه وبين متخصص العلوم الدنيوية الاجتماعية فيها والإنسانية، بل والطبيعية، وهو المتخصص الذي يدرس ظواهر العصر، وإذا كانت أزمة الأمة في فكرها ثم في معاشها قد استحكمت حين تدعمت هذه الفجوة التي قطعت بين علماء الأمة وبين جذورهم وتراثهم، وحيث أن طبائع الأمور ترفض استمرار هذا المنطق، فكان الاتجاه نحو محاولة سد الفجوة وإعادة بناء الجسور بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية كسبيل من السبل الأساسية لتجديد فكر الأمة ووعيها بذاتها ووصل ما انقطع مع تراثها.

ويعد هذا الطريق طريقاً ذا مسارين: أحدهما يسلكه الفقيه بتراث الأمة متجها نحو واقع مشكلاتها في عصرها، والآخر يسلكه الفقيه بعلوم العصر متجها نحو تراث الأمة فكراً ونظماً وممارسة. وإذا كانت أعمال هذه الندوة تمثل جهداً من الجهود المبذولة على المسار الثاني، فإن هذه الورقة عن الأستاذة بنت الشاطئ "شاهدة عصر" تسلك المسار الأول ولكن من خلال قلم بنت الشاطئ، لنبحث فيما تضمنته مقالاتها في الأهرام من معان.

هذا هو إذن منطلق هذه الورقة يتحدد بالتوجه العام الذي تنطلق منه الندوة في مجموعها أي كيفية التلاقح بين العلوم الاجتماعية والإنسانية وبين علوم تراث الإسلام.

أما منهج الورقة فيتحدد بتخصص مُعِدَّتها . إلا وهو العلاقات الدولية .كما يتحدد بإجراءات توثيق المادة العلمية. كيف؟

لقد قرأت لبنت الشاطئ في الأهرام كما قرأ غيري، ولكني لم أقرأ بانتظام شهادتها على العصر أو حديث رمضان. ومن ثم كان إعداد ورقة عن "بنت الشاطئ" شاهدة عصر يستلزم خطوات إجرائية وأخرى منهاجية عديدة.

I- الخطوات الإجرائية:

تعد الورقة نتاج قراءة في مجموعة من المقالات المنتقاة بواسطة الباحثة المساعدة أ./ عزة جلال التي سجلت ملاحظاتها حول الإشكاليات الإجرائية والمنهاجية التي أحاطت بعملية التوثيق، وهي الإشكاليات المتصلة بالفترة الزمنية محل التوثيق، وبمعايير اختيار المقالات موضع الدراسة من بين مجموعة المقالات المنشورة خلال الفترة الزمنية المحددة، وبمنهج تسجيل بنت الشاطئ لبعض الأحداث والوقائع . فعن الفترة الزمنية كان اختيار الفترة الزمنية موضع التوثيق لتبدأ من التسعينيات مرده الصعوبة التي يتكبدها الباحث ليطلع على ملفات المقالات (شاهدة عصر) في جريدة الأهرام، حيث صعوبة بيروقراطية النظام المتبع، والذي يقضي بعدم تصوير الملفات والاكتفاء بالاطلاع عليها في داخل الأرشيف حيث أن التصوير لا يتم إلا لرؤساء الأقسام، وحيث يصعب الاطلاع على كافة الملفات لأخذ ما يدخل ضمن نطاق البحث موضع الإعداد والاكتفاء بهذا الاطلاع دون تصويره، كان علينا انتقاء فترة زمنية محددة، فقمنا بالتوجه إلى مركز المحروسة لإتمام ذلك حيث تصوير الملفات متاح، وحيث كان من الصعب عملياً أن نطلب الاطلاع على الملفات قبل التسعينيات نظراً لقصر المدة المتاحة لتوثيق المادة قبل كتابة البحث، ونظراً لإمكانات المركز الذي قصدناه، هذا إضافة إلى كون التسعينيات يمكن اعتبارها عينة ممثلة لشهادة بنت الشاطئ بحكم ما شهدته من زخم في الأحداث.

وعن معايير اختيار المقالات موضع التحليل من مجموع المقالات المنشورة خلال المدة الزمنية موضع الاهتمام: حيث تشتمل الندوة على محاور عديدة منها ما يدخل لفكر د./عائشة عبد الرحمن كأديبة ومنها ما يدخل لفكرها كمفسرة للقرآن وككاتبة للتراجم..، فكان يراعي ألا يختلط ما نقوم برصده من مقالات مع محاور أخرى، حيث أن ما تحملنا عبئه كان دورها في شهادة العصر فكان التركيز على ما كتبته د./ عائشة عن أحداث آنية معاصرة من منظورها.

وعن ملاحظات على منهج تسجيل ببنت الشاطئ لبعض الأحداث والوقائع: كانت د.عائشة تكتب تحت عنوان شهادة العصر مقالات مسلسلة حول بيت النبوة ومواقف الرسول (ص) من أصحابه وزوجاته ومآثر السلف الصالح بما يتعارض مع توقعات دخلنا بها إلى عملية التوثيق، حيث كان الاعتقاد أن ما سيتم كتابته عن الشاهدة سينغلق على الأحداث الجارية ليتناولها بالتحليل والاستعراض أو حتى النقد ..

لكن هذا لا يعني أنها لم تكن تتناول الأحداث المحيطة بها فقد كان يأتي الحديث عن تلك الأمور أما في افتتاحية المقال الذي يتحدث عن حدث تاريخي أو الذي يتناول علماً إسلامياً من التاريخ أو يأتي في نهاية المقال (في عدة أسطر). أما إذا كان الحدث أكبر من أن يعبر عنه في سطور قليلة في المقدمة أو الخاتمة كانت تقطع سلسلة المقالات وتخصص مقالاً كاملاً عن الحدث لتعود بعده إلى ما كانت تتحدث فيه في سياق السلسلة.

يلاحظ في القراءة السريعة للمقالات أن ما كان يشدها هو الحدث السياسي الآني، وقد تقوم بربطه بحدث تاريخي مشابه من التراث. أما ما كانت تتعرض له بالتفصيل من أحداث ثقافية فكان في الأغلب احتفاليات حضرتها بنفسها يقطع ما تكتبه شهر رمضان الذي تستبدل مقالاتها بعنوان "أنوار رمضان" تتحدث فيه عن فضائل الشهر الكريم لتعود بعده إلى ما كانت تتحدث عنه من موضوع (كسيدات بيت النبوة).

ب- الخطوات المنهاجية:

حيث أن هذا الانتقاء يحول دون القول إن هذه الورقة هي تحليل تراكمي مكتمل لأعمال بنت الشاطئ كشاهدة عصر، فإن هذه الورقة تقدم نتائج قراءة ذات منهج خاص قاد إلى نتائج ترتبط بالمنهج، بعبارة أخرى طبيعة المادة (جزء من كل) فرضت طبيعة المنهج الذي فرض بدوره شكل النتائج، ويتلخص منهج إعداد الورقة في أمر أساسي وهو القراءة في ضوء مجموعة من الأسئلة الأساسية التي ثارت في ذهني منذ أن أخذت على عاتقي إعداد هذه الورقة، وهي الأسئلة التي تنبثق عن طبيعة التخصص بقدر ما تنبثق عن التوجه العام السابق الإشارة إليه، وتتخلص هذه الأسئلة كالتالي:

1- د./ عائشة عبد الرحمن هذه القمة بين قمم الأدب الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة الإسلامية كيف يمكن أن تقترب من قضايا العصر؟ كيف ينعكس منهجها الإسلامي على شهادتها على عصر؟ كيف ستعكس سطورها ومضامينها خصائص رؤية إسلامية عن العصر؟

2- د./ بنت الشاطئ هذه القمة الفكرية والفقهية والأدبية واللغوية التي امتد بها العمر ما يزيد عن ثلاثة أرباع القرن كيف ستحدد قضايا "العصر" ذات الأولوية؟ كيف ستنظر إلى وضع الأمة في العالم خلال العقد الأخير من القرن العشرين؟

3- كيف ستعبر تلك الأديبة الفقيهة عن معاني العصر بلغتها العربية الرفيعة؟ وما هو أولا مفهومها عن "العصر" الذي تشهده؟

4- وأخيراً، هل كانت مقالاتها تحت عنوان "شاهدة عصر" هي "شهادة على العصر" بالمقارنة بما هو متعارف عليه في هذا المجال؟

ولقد أسفرت القراءة في المقالات التي تم توثيقها عن تحديد مجموعة من المحاور والموضوعات التي تبين طبيعة منهج بنت الشاطئ كشاهدة عصر وخصائصه.

وتتخلص هذه الموضوعات وهذه الخصائص على النحو التالي:

الربط بين الروحي وبين الواقعي، وخاصة خلال الأعياد والمواسم الدينية، وعلى رأسها رمضان، الربط بين الفتن والنوازل الداخلية والخارجية التي تصيب الأمة وبين قضية الأخلاق، مفهوم الأمة موجود وقائم ويربط بين شعوبها ثوابت مستمرة تصمد أمام المحن وتتحدى الاعتقاد باستلاب هوية الأمة، قضايا الأمة التي تثير الهموم والحزن متنوعة ما بين حروب وديون وبين مفاسد داخلية وأمراض اجتماعية بين استلاب هوية وذاكرة تاريخية في ظل بدع التغريب، التوظيف الممتد والمتصل للتاريخ الإسلامي واستدعاؤه لبيان معاني الجهاد، الاستمرارية ، السقوط، الكيد وغيرها.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه الموضوعات يجدر التوقف- مبدئيا وحتى نصل إلى الخاتمة- للإشارة إلى سمتين تغلفان ما قرأته لبنت الشاطئ من مقالات: أولاهما أنه لم يمكني أن أفصل بين أنماط القضايا وبين المنهج؛ فإن مضمون القضية المطروحة يتضح بالمنهج، ومن ثم فإن بيان كيفية تقديم المضمون إنما هو بيان للمنهج في الوقت نفسه. أما ثانيتهما فتشير إلى الشعور بذلك التطابق الشديد بين بنت الشاطئ وبين الأمة ولكن في إطار مشاعر حزن طاغية تتلاطم فيها وتتطابق في الوقت نفسه مشاعر حزن شاهدة عصر لمآسي أمتها مع مشاعر حزن الأم الثكلى. هي تقول على سبيل المثال: "سلام على أمتي في شهرها العظيم، ليلة القدر ليلتنا جميعاً، التقط أنفاسي المجهدة لأكون مع أمتي في عيد فطرها". كما أنها تنسج بين حزنها على حال أمتها وبين حزنها على ابنها فتقول "بعد شهور طالت علىّ ركنت خلالها أرجع البصر من أطلال دنياي القفر ووجودي العقيم إلى البقايا الممزقة لعالمنا الإسلامي المنكوب". (92/5/8) كما تعبر في موضع آخر (94/3/24) عما

تجده من وحشة الاغتراب في زمن عقيم بليد ينشغل فيه الناس عن مصائب جيرانهم من شعوب شقيقة، ويفتقد قيم التراحم الإسلامية.

بعبارة أخرى تقدم بنت الشاطئ نموذجاً حياً زاخراً عن التطابق بين الفرد والأمة.

وهي تعبر عن ذلك بوضوح شديد في موضوع من إحدى مقالاتها تحت عنوان "رسالة الإسلام الحضارية: مع المصطفى بشراً رسولاً يوم الرحيل". (94/3/24) فهي تقول: "..وغالباً ما تتجاوب همومنا الفردية مع هجوم الأمة والإنسانية بعموم مطلق . تتماحى فيه أبعاد الأمكنة وآماد الأزمنة، وتتوارى فوارق العروق والأجناس والألوان والطبقات وتندمج ذاتيتنا الفردية الجماعية في جوهر ذاتية الإنسان، يأسى لأحزان أخيه الإنسان حيثما كان ..".

ولكن من ناحية أخرى كان حزن بنت الشاطئ حزن المؤمن الذي يجد تفسير نوائبه ونوائب أمته في سنة الله، كما يجد السلوى في رحاب الله تعالى ورحمته، فهي تقول: "الأيام تمضي وبنا ما بنا من حزن وقهر، ونحيى مع أمتنا شهر صيامها وعيد فطرها.. لا تنسخها عوادي الزمان وفوادح الكوارث .. فذلك أمر الله تعالى .. فيما يبلو به عباده من الشر والخير فتنةً تمحيصاً لقلوبهم وإلزاما لهم بكلمة التقوى..". (92/4/4)

ومن ناحية أخرى نجدها المؤمنة المرابطة التي ترى أن المرابطة واجب على الجميع كل في موقعه كهلاً أو شاباً فيما يسر له، كما تؤمن بتكامل أدوار الأجيال حول خدمة قضايا الأمة.

وفيما يلي بعض التفصيل حول نتائج القراءة، فكيف ستقودنا إذن إلى الإجابة على الأسئلة المطروحة حالياً؟ حيث يقع في صميم هذه الإجابة بيان منهج بنت الشاطئ "كشاهدة عصر".

<u>أولاً، من دخول رمضان إلى ليلة القدر إلى عيد الفطر: الرابطة بين العقدي والواقعي:</u>

تحتل المناسبات الدينية . وعلى رأسها شهر رمضان . قيمة متميزة لدى بنت الشاطئ. ولقد كان انفعال بنت الشاطئ بها قرين انفعالها بحال الأمة: كيف؟ فمع رمضان ترى بنت الشاطئ أن الأمة ما زالت قائمة وواحدة بالرغم مما أصابها من نوازل.

أ- ففي مقال تحت عنوان "قبس من نوره بين محاق وهلال" (92/3/5) يظهر مدى ربط بنت الشاطئ- بمنهج متميز- بين أيام رمضان وبين واقع حال الأمة، ففي انتظار رمضان ترصد الداء والأسباب (الاستقواء بالغير، الفرقة والتشتت) وتذكِّر بالمحن والحروب، وتنبه وتحذر من خطر

إسرائيل أكبر عدو لدود، وتستعجب من سلوكنا المتهالك على اللهو وعدم الخجل مما أصاب مكانتنا، وتسجل اختلال اتزاننا لأننا لم نعد نعرف المسار وأضحينا في غفلة الوعي وقصر البصر والبصيرة.

ثم تسجل مجيء هلال رمضان "بازغاً من ظلمات المحاق، فيرى أمته على عهده بها محتشدة لشهوده في مواكب الرؤية، لم تخلفه موعدها معه رغم ما ألم بها من كوارث جائحة وفتن حالقة، ولا حملها بؤس الوقت على أن تتعلل لإخلاف الموعد بمن ثكلت من مئات ألوف أبنائها في (الفتنة الكبرى) وما لقيت من فداحة الوطأة الرهيبة على شعوب منها أهلكها البغي، وديار كانت عامرة من فجر التاريخ فصارت خراباً". بعبارة أخرى فإن بنت الشاطئ تجد في "رمضان" عاملاً موحداً للأمة؛ فهو الثابت المستمر الذي يجمع ويظل شاهداً على حالها، وتأمل بنت الشاطئ أن يكشف نور رمضان الغشاوة عن بصرنا وسمعنا لندرك معنى السنن الثابتة في الكون والحياة.

وتظل بنت الشاطئ على الأمل باقية، أمل أن يظل الدين موحداً، فهي تقول: "وفي مجال نوره الرحب، فوق الحدود والسدود نتراءى له (رمضان) أنه واحد.. وتشرئب مآذن.. واصلة بين أرض لنا تئن من وطأة الطاغوت وبين الآفاق العليا للحق والخير، وترجع آذان الصلاة الذي لم يغب قط عن سمع الزمان منذ أذن به للصلاة من المسجد النبوي قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة قمرية".

ب- وتتكرر المعاني نفسها ولو بعبارات أخرى في مناسبة ليلة القدر، (1992/3/20) فبعد أن تشخص د./ بنت الشاطئ أنماط قضايا الأمة المختلفة من ديون وحروب وتغريب وفساد، يتبين لنا كيف ترنو إلى البعد الإيماني أملاً في حل وموحد، فتقول: "في ليلتنا، ترنو شعوبنا إلى النور البازغ من الأفق الأعلى، غير محجوب عنها بغواشي الظلمات وعربدة الطاغوت، فترفع الدعاء إلى الخالق عز وجل: (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون).

كما تقول: "هذه ليلتنا ليلة الملايين من أبناء الأمة" في كل مكان. لأن الجميع، فقراء وأغنياء، في الريف وفي الحضر، في دور العبادة وفي مجالس الأنس فقراء إلى الله تعالى في هذه الليلة التي يتطلعون إلى نورها يقبسون منها نفحة أمل ورجاء، وعلى موعد معها ليرفعوا إلى الله شكواهم ونجواهم.

جـ- ومع العيد، وفي مقال تحت عنوان: "عيد فطرنا زكاة ودعاء وصلاة"، (1992/4/4) تجدد د./ بنت الشاطئ طرح نفس المعنى: العيد رابط من روابط الأمة مهما كانت المحن والنوازل، فتقول: "بقية من باقياتنا الصالحات، لم يطمس بهاءها وجلالها مر الأيام والليالي وكسر الغداة العشي لأكثر من أربعة عشر قرناً. وبلاغاً إلى الناس في زمان التصنيف إلى عالم أول وثان وثالث ، بين سادة وعبيد (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً). نحتفل به تحدياً لمن ظنوا أن جوهر

أصالتنا قد أزرى به صدأ العتاقة، وأن ملامح هويتنا قد جارت عليها فتنة الاستهواء بمحدثات البدع وألحت عليها ذرائع المسخ والتشويه والاستلاب فهان علينا أن يجور لطاغوت بغير هوية ولا تاريخ، أن يستعبد آصل الأمم هوية وأعرقها تاريخاً وعلماً وحضارة".

ثانياً، الرابطة بين قضية الأخلاق في الإسلام وبين حال الأمة:

اتخذت د./ بنت الشاطئ "الإسلام والمبادئ الكلية للأخلاق" موضوعاً لمقالات "حديث رمضان" 1412هـ . وقبل أن تولج في التفاصيل اللغوية والفقهية في المقالات المتعاقبة، استهلت السلسلة بمقال تبين فيه دواعي اختيارها للموضوع، على نحو يبرز أن هذا الموضوع يقع في صميم شهادتها على العصر التي لا ينفصل فيها القيمي عن الواقعي، كما لم ينفصل فيها العقدي عن الواقعي.

أ- ففي هذا المقال تحت عنوان "عبرة الأيام وحديث الموسم" (1992/3/6) تبدأ برصد "قضايا أمتنا" التي تدارستها مع ولدها أكمل أمين الخولي قبل رحيله، والتي امتحنت أمتنا في نفس العام (المقصود بالطبع أزمة الخليج والحرب أساساً)، تقول: "تواجهنا قضية (الأخلاق والإسلام) تستقطب ظواهر الأزمات السياسية والاقتصادية في الصراع المحموم على مراكز السلطة ومناطق النفوذ.. (والحوار) في قضايا أخلاقية شاغلة تنفي الشذوذ عما نحن به من عجائب وغرائب، وترفض مسار الأحداث السائرة بنا على السنن الثابتة، وقد قال الله عز وجل: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً).

بعبارة موجزة ترى د./ بنت الشاطئ أن أزمة أخلاق تفسر أزمة الأمة، ولذا فهي تنفي ما قد يعتقده بعض القراء من أن اختيارها "موضوع الأخلاق لحديث الموسم دقة قديمة ونغمة نشاز في إيقاع هذا الزمان، وكأني لم أقرأ البحوث التي اختارها "الأهرام" نماذج لرؤية عالمية لمستقبل الشرق الأوسط..".

ومن ثم فهي تسجل متابعتها لأحداث العراق، الجزائر، ليبيا، السودان، إيران، باكستان، الصومال، (مساعي السلام) صفقات السلاح بعد حرب الخليج، واهتمامها بدلالة كل هذه الأحداث بالنسبة لموقع الإسلام في موازين القوى العالمية، وبالنسبة "لحرمة العهود والمواثيق الدولية وأخلاق عالم الكبار في تنمية عالمنا الثالث"، وبعد هذا التسجيل تقول: "لا أرى وجهاً للعدول عن الحديث في قضايا الأخلاق والإسلام، لما أقدر أنها تستقطب غيرها من قضايانا الشاغلة وما يطرأ عليها من تغيرات عصر جديد بدأ بعاصفة الصحراء وحرب الخليج نافذاً إلى أقطار العالم كله، وإن رأى بعض

مثقفينا المحدثين أن اختياري موضوع الأخلاق لحديث الموسم، دقة قديمة ونغمة نشاز في إيقاع العصر".

إن د./ بنت الشاطئ إنما تطرح في هذه السطور قضية هامة منهجية، وهي المتصلة بقدرة "المنظور القيمي" على تفسير الواقع، ناهيك عن تشخيصه. فإن تصديها على هذا النحو السابق للعلاقة بين قضية الأخلاق في الإسلام وبين حالة الأمة ليضعنا في صميم هذه القضية: المنظور الإسلامي كمنظور قيمي، وقدرته التفسيرية والتقويمية والتغييرية.

ثالثاً، من أنماط قضايا الأمة: قضية الاستلاب الحضاري واستلاب الذاكرة التاريخية:

رصدت د./ بنت الشاطئ في مواضع متفرقة من مقالاتها موضع الورقة أنماطاً مختلفة من قضايا الأمة الداخلية والخارجية، تظهر من طرحها الرابطة بين الداخلي والخارجي، كما تعكس سنن الله في خلقه.

وهذه القضايا هي: حروب البغي، الديون، المجاعات والأوبئة، الصناعات الملوثة والأطعمة الفاسدة، مذابح الأقليات المسلمة، اللاجئين المشردين، التغريب وقهر الغربة في الأوطان، والتشويه والاستلاب المتمثل في أفلام الجنس والجريمة وبرامج الإعلام للتثقيف والتسلية المبتذلة، المخدرات، الاغتصاب، المال، الاستثمار، الرشاوى والعمولات والمقامرات والمساومات، أحداث الجزائر وليبيا والسودان وإيران وباكستان والعراق.

ولعل من أهم القضايا التي توقفت عندها بقدر من التفصيل قضية التشويه والاستلاب للهوية، وقضية استلاب الذاكرة التاريخية.

وقد ضربت مثالاً على قضية التشويه واستلاب الهوية (92/4/4) ما طرأ من بدع على إحياء رمضان والعيد على الطريقة العصرية، وهي الطريقة التي تحول بها الشهر تدريجياً في مصر خلال السنوات الأخيرة، إلى شهر للاحتفالات والليالي الملاح، يتصل مباشرة بالتطور الذي تفرضه الطبقات الجديدة على الحياة في مصر.. يتحول بها الدين على يديها إلى مظهر اجتماعي للرياء والأبهة.

أما قضية استلاب الذاكرة التاريخية فلقد طرحتها في منسابة العاشر من رمضان، ففي مقال تحت عنوان "عاشر رمضان وتداعي الذكريات"، (94/2/21) والتي اخترقت سلسلة "المرأة وتاريخ الإسلام الحضاري"، تبدأ د./ عائشة بسؤال: "لم يزل يلح على خاطري في مثل هذا اليوم (العاشر من رمضان) منذ سلبه حقه الشرعي في ذكرى يوم النصر بديله الأصم يوم سادس أكتوبر، من حيث لا ندري ولا نتوقع". ولذا فبعد أن تصف الحال قبل 10 رمضان 1393هـ (6 أكتوبر 1973) ومنذ

هزيمة يونية 67، وبعد أن تصف بتعبيرات لغوية فائقة الحس والدلالة معاني وأحداث يوم العاشر من رمضان 1393هـ ، وبعد أن تبين شروط النصر "لله تعالى كانت التلبية، وباسمه جل جلاله كانت التعبئة والاستنفار والاحتشاد، وسعى إلى جبهة القتال جند مشارقة ومغاربة يقاتلون في سبيله صفاً واحداً بلواء واحد، ولتكون كلمة الله هي العليا". وبعد أن تقول: "وفي ضمير الأمة ارتبط النصر بيومه الميمون، العاشر من رمضان" تعود وتتساءل كيف؟ ولم؟ ومتى كان التحول إلى بديله الدَّعِيّ؟

وفي ضوء كل ما سبق حول إسقاط العاشر من رمضان من الذاكرة، واستكمالاً للتأكيد، تظل د./ بنت الشاطئ تُذكِّر كل عام بهذا المعنى وتداعياته. ولهذا ففي مقال تحت عنوان "قراءة في تاريخنا: كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا (1)" (94/3/31) تستنكر د./بنت الشاطئ أسلوب الاحتفال العقيم بأيامنا التاريخية المشهودة– مثل يوم بدر– على الطريقة العصرية، أي بإقامة السرادقات وإعداد الأغاني والمسلسلات، ثم ينفض السامر، وحتى يحل العام التالي، وهكذا، وبحيث يصبح يوم بدر في منطقتنا "مكتوم الصدى، مطموس الأثر، وذلك ما لا يصح في واقع التاريخ وثوابت السنن لطبيعة الأشياء وعواقب الأحداث المؤثرة في موازين القوى ومسار حركة التاريخ ومصائر الجماعات، بل يظل السجل الوثائقي ليوم بدر مفتوحاً في وعي التاريخ وذاكرته، يرصد أصداء اليوم المشهود ويراجع حساب موازين القوى التي تقررت يوم بدر بين قلة مؤمنة صابرة.. وبين كثرة باغية".

ولقد أعادت د./ بنت الشاطئ التذكرة بالمعاني نفسها وإن كان بأسلوب مغاير في مقال آخر في رمضان تال تحت عنوان: "أنوار رمضان: البدريون في وجدان الأمة وضميرها". (1997/1/30) فهي تشير إلى أن الاحتفال في بدر جاء مدرجاً في احتفال أجهزة الإعلام العام بالشهر المعظم على الطريقة العصرية: المسلسلات والفوازير وإمتاع نجوم الليل وكواكب السينما في ملاهي العاصمة للصائمين بموائد الإفطار الشهية وإلى السحور الحالم.

وفي المقابل تأتي البرامج الدينية وندوات أهل العلم كفواصل تزاحمها فنون الإعلان المختلفة.

وحتى تزيد المعنى وضوحاً، فإن د./ بنت الشاطئ تذكر ما كان من تقاليد سباقة لإحياء رمضان، ولإحياء ذكرى الأيام الإسلامية الكبرى في الشهر المعظم، والتي "كان لكل منها عيده الخاص وشعائره المأثورة وفق برنامج معين غير مبهم بالإدراج في غيره، ولا تائه العبرة ملتبس المعالم، كالذي يحدث في زماننا البائس من استبدال 6 أكتوبر بعاشر رمضان".

رابعاً، استدعاء التاريخ الإسلامي وتوظيفه:

توقفت د./ عائشة عند محطات ومفارق طرق هامة في التاريخ الإسلامي لتقدم من خلالها معاني وعبراً ذات دلالة بالنسبة لما تعايشه كشاهدة عصر.

فإلى جانب "موقعه بدر" ودلالتها بالنسبة "للجهاد" ولموازين القوى المعتبرة ليس المادية فقط ولكن الإيمانية أيضاً، توقفت د./ عائشة- فيما طالعناه من مقالاتها- عند واقعة وفاة الرسول- صلى الله عليه وسلم - وذكرى سقوط غرناطة والإسرائيليات. وتقدم هذه المشاهد على التوالي- وكما سنرى- معاني الحزن، ولكن مع استمرارية الرسالة العالمية، السقوط بعد الصعود، من الكيد الخفي إلى العداء المعلن. وهي المعاني التي تتولد من التاريخ، ولكن انطلاقاً من تأثير الواقع، وسعياً نحو توضيحه من خلال عبر التاريخ ودروسه.

أ-واقعة رحيل الرسول صلى الله عليه وسلم: معنى الحزن مع الاستمرارية:

في مقال تحت عنوان "رسالة الإسلام الحضارية: مع المصطفى بشراً رسولاً يوم الرحيل" (94/3/24) فإن د./ عائشة عبد الرحمن بدأت بالتعبير عن حزنها الخاص لرحيل رمضان، وعن حزنها العام على حال الأمة. وإذ يتوحد الحزنان لديها فتتساءل عما تجده من وحشة الاغتراب في زمن عقيم بليد، نجد أنها تصل إلى استدعاء صورة الحزن الكبير يوم وفاة الرسول- صلى الله عليه وسلم. لقد وصلت إلى الاستدعاء من خلال التأسي على زماننا الذي لم تعد تتجاوب فيه الهموم الفردية مع الهموم الإنسانية لدرجة تجعل د./ عائشة تقول: "ليس من حق مثلي أن تبكي وتستروح أنس المواساة في زمن عقيم بليد .. فتحاملت على شتات نفسي ألم أوراقي المبعثرة". وبذا تصل إلى مشهد وفاة الرسول ورحيله تنقله عن أحد كتبها، كما لو كانت تريد أن تقول هذا هو معنى الحزن الكبير الذي يتصل بالأمة وبالرسالة وبالاستمرارية، والذي يهون معه وأمامه كل حزن. "دفنوا محمد بن عبد الله، وعاش الرسول- صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين الذي اصطفاه الله لختام رسالاته.. معجزة نبي أمي، وكتاب شريعة، ولواء عقيدة وجهت التاريخ، وحررت الإنسان، وهدت مسرى البشرية في ليل جاهليتها، وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال".

ب-حضارة الإسلام في الأندلس: بين دروس الصعود والرسالة الحضارية وبين دروس السقوط:

في مقال تحت عنوان "بعد عام أسبانيا : حضارة ثمانية قرون للإسلام بالأندلس، أهذا ما بقى لنا منها؟" (1994/1/20) نقلت د./ بنت الشاطئ لقرائها، وعلى لسان مؤرخي الحضارة الإسلامية من الأوربيين (جوستاف لوبون)، ما كانت عليه حضارة الإسلام في عصرها الزاهر بالأندلس من سمو

ورفعه في مجالات العلوم والعمران: ولكن أضافت د./ بنت الشاطئ أنه أيضاً كان "للمسلمين العرب فيها إمامة الثقافة ورسالة التمدن".

ولقد جاءت هذه المقالة– كما يتضح من جزء من عنوانها: "بعد عام أسبانيا"– مع احتفاء أسبانيا بذكرى مرور 500 عام على اكتشاف العالم الجديد، وهي أيضاً– بالنسبة لنا–ذكرى مرور 500 عام على سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام هناك بعد عصر استمر 8 قرون منذ مستهل الفتح الإسلامي (92هـ . 897 هـ ، 710م . 1492م).

ولهذا وجدت د./ بنت الشاطئ المقالة مناسبة لتأكيد معنى رسالة الإسلام الحضارية.

ومفهوم هذه الرسالة كما أبرزتها د./ عائشة هو أن "حضارة الإسلام ليست حضارة تمدن وعمران فحسب، بل هي كذلك رسالة روحية خلقية، وشعائر عبادات ومنهاج معاملات وسلوك". ولهذا تصف د./ عائشة كيف بدأ الفاتحون من خلال المساجد الجامعة والمدرسة القيام برسالة الإسلام الحضارية "بمفهومها الرحب ألا تقتصر– كما أشرت آنفاً– على التمدن العمراني والتقدم العلمي فحسب، بل تتجلى كذلك في القيم والأخلاق والسلوك. ويعترف علماء الحضارة بأن الفاتحين العرب المسلمين (هم الذين علموا الشعوب الأوربية، أو حاولوا أن يعلموها، كما قال الأستاذ لوبون والعلامة سبريو التسامح الذي هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية..".

ولهذا وبعد التفصيل في إنجاز ملوك الأندلس المروانيين وكيف كان سقوط الدولة الأموية نهاية (قرون ثلاثة لأنضر حضارة عرفها التاريخ) تنبري د./ بنت الشاطئ لبيان الوجه الآخر لمفهومها عن رسالة الإسلام الحضارية. وهو أن هذه الرسالة لا تسقط بسقوط الدول. فهي تقول: "وفي واقع تاريخنا أن البنيان الشامخ لدولة الإسلام الكبرى لم ينقض فجأة، بل حدثت فيه شروخ أخفاها وهج عظمة البنيان وأنذر بها مؤرخ الأندلس أبو مروان ابن حيان القرطبي في مستهل القرن الرابع للهجرة.. ولم تتعطل مسيرة الحضارة الإسلامية بملوك الطرائق، ولا انطفأ منارها في هوج الأعاصير، بل سهر على حراسته أئمة كانوا نجوم الداجية وظل القرآن يهدي مسرى الأمة في داجي الظلمات".

كأن بنت الشاطئ تقول إن الأمة باقية ورسالتها الحضارية مستمرة بعلمائها وليس بحكامها فقط. ولهذا فهي تختم المقال بسؤال: "فهل لم يبق لنا من حضارة ثمانية قرون للإسلام في الأندلس سوى بقايا آثار ورؤى أطياف ورجع أذان صلوات وموشحات، وهمس نجوى وأشجان وداع وبكائيات الديار الغاليات"؟

ج–الإسرائيليات: من الكيد الخفي إلى العداء المعلن من جانب العدو اللدود:

وفي سلسلة مقالات عن الإسرائيليات تصدت د./ بنت الشاطئ لأمرين أساسيين. بيان التطور في التحدي الذي يمثله العدو اللدود والذي أضحى صريحاً وواضحاً بعد أن كان خفياً، والتأكيد على قاعدة منهاجية أساسية فيما يتصل بدراسة الإسلام. ومما لاشك أن كلا الأمرين في صميم واقع حال الأمة الذي يشهد الصلف الإسرائيلي كما يشهد التعدي على الإسلام.

وعن الأمر الأول، فهي تفتتح إحدى مقالاتها تحت عنوان "التقويم الإسلامي بالهجرة ومدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الديني (2)" (1995/9/8) بالقول "لبثت زمنا اتهم مدسوس الإسرائيليات إلى فكرنا الديني، بخبث الذرائع ومكر المدخل ودهاء الحيلة، وأراها اليوم قد جاءتنا على المكشوف دون ستار أو قناع، فهل يكون الغزو السافر لأمنع حصوننا إنما هو الدهاء المحصن والإيغال في سوء الظن بوعينا؟"

وفي مقالة تالية تحت عنوان "قراءة في ملف الهجرة (3) : مدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الإسلامي مرحلة التحضير" (95/9/14) تفتح د./ بنت الشاطئ بالقول: "حركة الإسرائيليات في فكرنا الديني قديمة قدم تاريخنا العريق، على مراحل سايرت حركة التاريخ. ولا أشق على قومي الكرام بالتفات إلى ماض بعيد، تلهينا عنه دواهي الملاهي وضغط النوازل، بل حسبي أن نرجع البصر إلى القرن الماضي قبل أن يغيب عن الرؤية بما شهد من حركة تحول بالغة الخطر، تحركت فيها شحنة الإسرائيليات إلى مرحلة التحضير لما نحن فيه. وعلى العهد بها في واقع التاريخ، ترصد المواقع، وتكشف المداخل، وتجهز البضاعة، وتخطف الإبصار، وتوجه الخطوات لمن يعبرون بها إلى الهدف المقصود".

فما أبلغ هاتين الافتتاحيتين في إيجازهما وفي تعبيرهما في الوقت نفسه، عن أكثر معضلات حياتنا الفكرية والسياسية والمعاصرة خطورة، وهي المتصلة بالتحدي الصهيوني والإسرائيلي على صعيد الحركة والفكر. وهو التحدي الذي ترجع جذوره إلى التاريخ.

ولقد انبرت د./ بنت الشاطئ للكشف عن تفاصيل وعن دلالات وأبعاد هاتين المقولتين الموجزتين، وذلك عبر خطوتين: بالرجوع أولاً إلى التقويم الإسلامي بالهجرة ومدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الديني، ثم بالرجوع ثانياً إلى الدراسات الاستشراقية التي وثقت للإسرائيليات وحركتها من منطقة الظل في كتب السلف وفي منشورات مجهولة إلى مجال الرؤية.

وبالتوقف عند هذه الخطوة الثانية نجد د./ عائشة عبد الرحمن وقبل أن تصل إلى دور الاستشراق الحديث في بث الإسرائيليات، تبدأ بالنص على جانب إيجابي في أعمال استشراقية

(جوستاف لوبون) وهي الأعمال التي كشفت عن تفسير تاريخنا ومنطقه، والذي لخصته د./ عائشة كما يلي :

"الدين سر قوة هذه الأمة، وبالإيمان فتح المسلمون العالم، ويهون عليهم أن يخسروا كل شئ ولا يخسروا دينهم، وقد تُغلَب الأمة الإسلامية، ويبقى دينها لا يقهر، يحمي بقاءها ويحدو مسارها في ظلمات الليل".

وكأن د.عائشة بهذه البداية (في مقال: مدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الإسلامي- مرحلة التحضير) تريد أن تبين وتؤكد على أن هذا غرض الإسرائيليات، وهو النيل من دين هذه الأمة حتى يمكن النيل منها، ولهذا فهى تنتقل إلى استشراق القرن 19، والذي ضربت له مثلا بأعمال المستشرق اليهودي المجري جولد تسيهر (كتاب العقدية والشريعة والإسلام) وتسجل د./ بنت الشاطئ قبل أن تشرع في نقد بعض مقولاته أن هذه الأعمال قد "عبئت كتائب من يهود القرن 19 ورثة تأثر يهود الحجاز عصر المبعث.. مهمتها في مرحلة التحضير لمملكة بني إسرائيل، تحريك الإسرائيليات إلى موضع جديد .. انطلاقاً إلى مقولتهم الجريئة الفاحشة: الإسلام كله بضاعة إسرائيلية تلقاها محمد عليه السلام . من أساتذته يهود يثرب بعد هجرته إليها! وينشر جديد الإسرائيليات في الغرب الأمريكي الأوربي، لتسيطر على الفكر الغربي الحديث، في انتظار تحريكها إلى الشرق الإسلامي، مع رسل الثقافة العصرية..".

الأمر الثاني الذي أبرزته د./ بنت الشاطئ خلال قراءتها في ملف الإسرائيليات هو الذي يتصل بالشق المنهاجي في دراسة الإسلام.

وكانت د./ عائشة قد أحالت في المقال السابق إلى مقدمة المترجمين لكتاب جولد تسهير التي تشير إلى الأخطاء غير اليسيرة التي يقع فيها المؤلف بسبب عوامل قد يكون منها "أنه لم يتأت له أن ينفذ تماماً إلى روح الإسلام ومبادئه وأصوله، وقد يكون منها ما هو طبيعي في كل ذي دين وثقافة خاصة من العصبية لدينه وثقافته الخاصة. ومن أجل ذلك كان نقله فرضاً على القادرين من أبنائها ، وبخاصة إذا كان ممن تخصص في الشئون الإسلامية"!!

ولكنها وفي مقدمة مقالة تالية في السلسلة نفسها تحت عنوان" قراءة في ملف الإسرائيليات والتأريخ للإسلام بالهجرة(5) (1995/9/28) توضح التزامها بقاعدة المنهجية الأصولية في مناقشة مقولات جولد تسهير. وفي هذا تقول "حين أنبه على أن الاعتراف بالقرآن الكريم وحياً إلهياً إلزام علمي منهجي لكل من يتصدى لدرس القرآن والإسلام ، مسلماً كان أو غير مسلم، فذلك لا يفرض

بحال ما، شرط إيمان الدارس غير المسلم بالدين الإسلامي، كما لا يعني إطلاقاً جواز خوض المسلم في القرآن وعلوم الإسلام بغير علم، فذلك محظور علمياً مثلما هو محظور في الدين، مع التمييز بين غيب استأثر الله بعلمه، ومجهول يظل الإنسان كادحاً لاكتشافه، فيسقط عنه الحظر الديني والعلمي معاً.. وكما لا يحل لعلمائنا الأئمة أن يقولوا في نصوص اللاهوت بغير علم سوى مطالعات ساعات بين كتبهم، لا يحل لعلماء اللاهوت أن يقولوا في القرآن أو الإسلام رجما بالظن".

وإذا كانت هذه القاعدة المنهاجية التي نبهت د./ بنت الشاطئ إلى ضرورة احترامها قد تعكس في نظر البعض تقييداً لحرية الفكر والرأي فإن د./ بنت الشاطئ كانت الأكثر حرصاً على ضوابط العمل البحثي في مجال علوم الإسلام، كما كانت الأكثر حرصاً أيضاً على هذه الحرية انطلاقاً من فهمها فطرة دين الإسلام.

ففي مقال تحت عنوان: "حرية العقل والرأي (2)" (1997/1/27)، تتحدث عن أحد أهم أبعاد حرية الرأي، ألا وهو الجدال في الأمور الدينية وما يتصل بها من مسائل عملية. وتوضح د./ عائشة من المعنى اللغوي للجدل ومن وروده في القرآن أن "..كثرة الجدل ظاهرة إنسانية من تلك الخواص التي تميزه عن غيره من الكائنات، ومن هنا قدر الإسلام . وهو دين الفطرة . طبيعة هذا الإنسان.. فلم ينكر عليه الجدال إلا أن يكون مماراة فاحشة في الحق الجلي والآيات البينات، عن عناد ومكابرة ، أو عن إصرار على الجهل والضلال.. وأما حين يكون جدال الإنسان عن حاجة إلى الاقتناع، فمن حقه أن يُصغَى إليه ويجادل بالتي هي أحسن. إن الإسلام أفسح للإنسان وجه العذر حين يكون جداله عن رأي حر وفكر حر ونية خالصة، لأن مثل هذا الجدال من إنسانيته التي حمل أمانتها".

د – الخطر الإسرائيلي المعاصر في ظل قراءة التاريخ:

إذا كانت إعادة قراءة د./ عائشة لملف الإسرائيليات قد قدم لنا جذور الخطر الإسرائيلي المعاصر في مراحل البداية والتحضير، فإن التحذير من الخطر الإسرائيلي المعاصر قد شغل حيزاً أساسياً من خطاب د./ عائشة في مقالاتها. ولقد توقفت دائماً . أيا ما كان موضوع المقالة. عند الأشكال المختلفة لهذا الخطر؛ العسكري منه وغير العسكري (كما سبق ورأينا في البنود السابقة).

ومن خلال استدعاء التاريخ، لم تفقد د./ عائشة الفرصة لتقديم ، صورة أخرى عن هذا الخطر. وتزيد د./ عائشة الصورة وضوحاً من خلال استدعاء مشهد تاريخي ممتد، يعكس هذا المشهد الفارق بين رسالة الإسلام وبين رسالة إسرائيل إلى عالم اليوم.

ففي نطاق مجموعة مقالات تحت عنوان "قراءة في تاريخنا" وفي مقالة تحت عنوان "الإسلام في طريقة من الحديبية وخيبر إلى كسرى وقيصر ومصر" (96/4/25)، تعترف د./ بنت الشاطئ . اعترافاً صريحاً بهدف استدعائها لهذا التاريخ ودلالته، وهو المقارنة بين رسالة الإسلام ورسالة إسرائيل. فإذا كانت قد بدأت المقال بالنص على أن "رسالة إسرائيل إلى عالم اليوم وصلت إلى أقصاه طولاً وعرضاً وإلى جنوب وشمال.. قد أسمعت من به صمم"، فهي تتساءل: "هل يبلغ من قومي مسمعاً، ما أحدثهم به عن "رسالة الإسلام في طريقه من ..؟" ثم تقرر بحزم: "فليكن حديثي عن رسالة النبي الأمي يتجه بالتاريخ من الحديبية إلى كل من كسرى وقيصر ومصر.. رسالة إلى زمان تمثل بعصير عناقيد دماء الأطفال الرضع على إيقاع وطء الدبابات وجماجم أسرى حروب التصفية الدينية وضحايا التمييز العنصري، ودك المساجد والمستشفيات والملاجئ على المصلين والمرضى والتلاميذ، ويفيق إنذار مئات الألوف من الضحايا البشر ليخرجوا من دورهم إلى العراء المكشوف لحصد الضحايا قرباناً لطاغوت الزمان، ووليمة لأعداء البشر".

ويبين العرض التاريخي الذي تلا هذه المقدمة قواعد وضوابط تعامل الرسول- عليه الصلاة والسلام- مع يهود خيبر ومع مسيحيي مصر "وكان يهود خيبر هم من فروا إلى شمال الحجاز من وطأة الرومان الساحقة".

وعلى هذا النحو تتضح ملامح الصورة المقارنة التي أرادت د./ عائشة رسمها من خلال استدعاء التاريخ، أي لتوضيح الفارق الشاسع مع رسالة إسرائيل في العالم المعاصر. ولعل مغزى المقال يزداد وضوحاً إذا تذكرنا أن تاريخ نشره كان يتزامن مع "مذبحة قانا" في ظل ما عرف بعملية "عناقيد الغضب" التي نفذتها إسرائيل ضد لبنان بعد مقتل رابين وقبيل انتخابات رئاسة الوزراء الإسرائيلية التي جاءت بنتانياهو وليس بيريز إلى السلطة في إسرائيل.

ولهذا لا عجب أيضاً أن تنتهز د./ عائشة مناسبات دينية أخرى لتلقي بدلوها في تسجيل الممارسات الإسرائيلية؛ فنجدها- في نطاق مجموعة مقالات تحت عنوان: "مع المصطفى من مولده إلى مبعثه"، وفي المقالة الأولى تحت عنوان "اليتيم الهاشمي الرضيع" (1997/7/31) تبدأ المقال بالتذكرة بأن الاحتفال بعيد المولد النبوي قد مر "وعالم اليوم يستجدي إسرائيل أن تمن عليه بالعودة إلى مفاوضات السلام والمساومة عليه كيف شاءت ومتى شاءت، وهي تأبى إلا أن تواجه العالم كله بتهويد ما اغتالت من أقطار الشرق الأوسط موغلة في صميمه بما يحقق مآرب الصهيونية العالمية، ومعربدة على أعز حمانا بوطأة طاغوت وخيلاء مستعمر، وتضغط على وعينا الخاص والعام بتلاحق الأحداث وألاعيب السحرة ومكائد التضليل والتخدير".

ثم تشرع د./ عائشة في جزء كبير من المقال باستعراض أحداث مستعمرة جبل "أبو غينم" بالقدس الشرقية، ثم مشروع "رأس العامود" التي شغلت الساحة العربية خلال العام الأول من حكم نتيناهو ، وكذلك سابقة موافقة الكنيست على تهويد الجولان، والتي تناقلتها وكالات الأنباء في 12 ربيع الأول 1418هـ.

خامساً، من الارتحال إلى الموطن (دمياط) إلى الارتحال إلى الجبهة المغربية: معاني ودلالات ما قبل رحيل بنت الشاطئ: وطأة التغريب ومعنى الدين ووطأة التجزئة ومعنى الوحدة:

تنامى خلال العام الأخير من حياة د./ بنت الشاطئ إحساسها بالحزن الدفين على ما طال أمتها من كروب ومحن. وكانت زيارتها إلى دمياط "بعد سنين من بعد الملتقى" مناسبة جددت د./ عائشة عبر وصفها لوقائع هذه الزيارة ما تراه تفسيراً لما آل إليه حال أمتها. فإذا كان الارتحال السابق في ملف الإسرائيليات قد قالت د./ عائشة لنا من خلاله إن الدين هو سر قوة هذه الأمة ولذا أراد اليهود وتريد إسرائيل وحلفاؤها النيل منه، فلقد كان ارتحالها إلى موطنها يجدد لنا المعنى نفسه. كيف؟

ولعل عنوان المقال ذاته خير تعبير عن خلاصتي السابقة، فتحت عنوان "مراجعات للرؤية التاريخية.. من الموقع الديني بثغر دمياط" (1997/8/21)، سجلت د./ عائشة في بدايتها شعورها عن "ظلمة التغريب في عالم مأخوذ بما يستطل علينا ليل نهار من جرعات تخدير لمناعتنا المعنوية والروحية المكتسبة من وعينا لعز أصالتنا وعراقة تاريخنا، وجاز عليها أن ينمينا عالم اليوم إلى دول متخلفة نامية تستجدي الطاغوت حق وجود ومصير، وتستنفر الأمم المتحدة لتكفل لها حقوق إنسانيتها في عصر الفيتو. ولا أكتم قومي أنني إذ أطل على وجود أمتنا بين ماض وحاضر، يساورني بين حين وآخر هاجس ارتياب فيما أرصد من نوازل الوقت وتحديات العصر، أراني معها لازلت واقعة تحت الإحساس الباهظ بوطأة الكابوس الجاثم على وجودنا، يطاردني كالشبح فأرى كل الطرق موصلة إلى تل أبيب فالقدس".

ولا عجب بعد هذه المقدمة أن يدور تسجيلها للزيارة التي جمعت– كما تقول– شتات كيانها وهي في طريقها إليها من خلال "الموقع الديني" ترصد ما مرت به وما جال بخاطرها، في ظل عبارة ذات دلالة قوية جاءت بين سطور نهاية المقالة، وهي: "وعصرنا مأخوذ بالعامل الاقتصادي، يراه العامل المسيطر على حركة التاريخ بمعزل عن الدين"، وكذلك في ظل فقرة كاملة تزيد الدلالة السابقة وضوحاً وجاءت في بداية وصف الزيارة، حيث تقول: "دخلتها هذه المرة على استحياء، وفى ظنى أن ألتمس في خلوتى بها ما ساورنى من هاجس ارتياب فى إدراكى منطق الحتمية التاريخية لوجود أمتى

بين ماض وحاضر، ولعلى فى هذا المناخ أجد نفسى فأراجع ما سبق لى من رؤية مسار تاريخنا من عصور العزة و المنعة، وحضارة قائدة رائدة، إلى ما نحن فيه من هوان موضعنا في المصنف الدولي، وهل زاغ بصري في رؤيتي للعامل الديني في وجودنا يستقطب سائر العوالم الأخرى اقتصادية واجتماعية ومذهبية، متأثراً بها ومؤثراً فيها، ليعطي تاريخنا كله تفسيره ومغزاه ومنطقه؟"

ولذا لا عجب أن ما سجلته من لمحات الزيارة ينضح بهذا المعنى: العمل التطوعي والبذل لوجه الله، الخصائص المميزة لشخصية أبناء دمياط، التساؤل عن مدى استمرارها وخاصة استقبال باكورة كل صباح بقارئ يبارك الدار ثم ينشط صاحبه من بعده، أدلة تجليل العلم والدين من مساجد الأولياء، التفسير الديني للمنطقة تمثلاً بتماثيل ومناطق ذات دلالة.

وأخيراً، وبعد هذه البداية للمقالة، وبعد محطات الزيارة التي سجلتها، تصل في النهاية وهي تصف طول طريق الإياب، إلى تسجيل ما سمعته عن غارة إسرائيلية على جنوب لبنان وعن ما نشرته "الأهرام" في بيان عنوانه "واشنطن تتفهم الإجراءات الإسرائيلية العقابية لفلسطين وتطالب عرفات بالتعاون الكامل مع تل أبيب".

وتختم د./ بنت الشاطئ المقالة بالآيات البينات التالية (هذا نذير من النذر الأولى، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا).

إن د.بنت الشاطئ– وهي تختم المقال على هذا النحو–كما لو كانت تصرخ: إن "الرجوع عن الدين هو سبب ما وصلنا إليه". فما أجملها من رابطة بين بداية ونهاية.

وبعد الارتحال إلى الموطن وموقع الديني منه كما رأينا تستدعي د./ بنت الشاطئ من الارتحال إلى المغرب أبعاداً دينية أخرى ذات صلة بواقع الأمة المجزأ وكيف تتغلب الروابط الدينية عليه. أحدها يتصل بالرابطة الوجدانية والروحية بين مصر والمغرب، وهي الرابطة التي تتسم بالثبات والديمومة، ومن ثم فهي تتخطى كل الروابط والعلائق الرسمية التي تتعرض للتغيير والإلغاء. وتنبع هذه الرابطة من رحاب القرآن الكريم وعلمائه والشيوخ الفقهاء، لما لهم من نفوذ جماعي واتصال مباشر بالجماهير: "اليوم أتجه إلى ما كان من تواصل حميم بين مصر والمغرب في رحاب القرآن الكريم، ومعلوم بالضرورة أن رحابه ملتقى الأمة كلها على مر الأعصار واختلاف الأمصار". هكذا تقول فى مقال لها تحت عنوان "التواصل بين المغرب ومصر : فى رحاب القرآن الكريم" (1998/3/12) .

وتأتى هذه الأبعاد لما يمثله رمضان المعظم – كعادته لدى د./ بنت الشاطئ من قبس نور يجمع شتاتنا على ترامى الأبعاد وتنائي الديار، يجلو عن وعينا وقلوبنا بلادة الحس وصدأ الوجدان والضمير، ويسرى بنا من ليلنا البهيم إلي مجال نوره..."

هكذا تقول د./ عائشة "لقاء مع تاريخ الإسلام في الجهة المغربية" (98/1/5) . كانت تستقبل رمضان وهي تسجل "ظاهرة التآكل لأطراف العالم الإسلامي الكبير.. وحروب حاصدة غشوم، بعضنا فيها لبعض عدو"، وتربط بين أنباء مؤتمر القمة الإسلامي بطهران الذي هو "رسالة إلى عالم اليوم عن وحدة أمتنا تحت لواء الإسلام"، وبين إعلان نتانياهو التهويد الأبدي للقدس، ومن ثم وكما تقول د./ عائشة، فلقد أجهدها "تلاحق الأحداث وتراكم النوازل.. فالتمست مخرج صدق، فجمعت شتات ذاتي واتجهت تلقائيا إلى الجهة المغربية التي انتهى إليها مد الفتوح الإسلامية الكبرى بلواء الإسلام قبل نهاية القرن الهجري الأول، فلما كانت محنة ضياع الأندلس استقبلت الجهة المغربية هجرة الإسلام إليها دينا ودولة ولسانا وعلماً وحضارة وتراثاً".

خلاصة:

كانت د./ عائشة "شاهدة عصر" من نوع خاص تعيش وقائعه وأحداثه واتجاهاته بعقل وقلب الفقيهة المسلمة التي ينقطع واقعها عن جذورها وعن تراثها: قيما وسلوكاً وروحاً، ولا تنبت مقاييسها ومعاييرها عن أسس وقواعد ومبادئ عقيدتها وحضارتها. ومن ثم فهي كانت شاهدة عصر لا تصف ولا تشخص بالتفصيل، ولكن تقيم وتفسر في ضوء منظومة قيم مستمدة من "الذات"، وفي ضوء تاريخ حضاري غني بالدلالات، ولهذا فإن المقالات التي رجعنا إليها كانت تبدأ بمقولة أو منطوق رئيسي يطرح هما من هموم العصر (التي لخصناها في مجموعات النتائج) ثم تبدأ المقالة بعد ذلك في تناول موضوع ذي دلالة تاريخية أو فقهية بالنسبة لهذا المنطوق. ودون أن تغرق في تفاصيل ودقائق القضية أو الحدث– وهو الأمر الذي تأخذه عن غيرها– كانت تنبري مباشرة إلى طرح هموم وأوجاع ما تعايشه، وذلك بأسلوب متميز وهو الأسلوب الذي يجد في الحدث الديني أو المناسبة الدينية أو الواقعة التاريخية الدلالة والمغزى، سواء من أجل التذكرة أو التخدير، أو التنبيه أو المقارنة.

بعبارة أخرى لم تكن د./ بنت الشاطئ تكتب في التاريخ أو التفسير أو غيرهما كغاية، ولكن كانت تستدعي التاريخ أو التفسير أو الحدث أو السيرة أو الفقه (وهي المجالات التي أبدعت حولها واجتهدت بشأنها في مخرجات أخرى . غير المقال الصحفي) لمنهجها: كشاهدة عصر. نعم .. منهجها في الشهادة على العصر هو منهج الفقيهة، المحدثة، المؤرخة، الأديبة. ومن هنا تميزه. فلم

يكن استدعاء التاريخ لدى د./ بنت الشاطئ هروبا إلى ماضٍ أو مثل سابق، ولكن كان استدعاءً ينطلق من "أثقال" الواقع وهمومه، التي أوجعتها، ويرتبط بأحداث هذا الواقع وبتياراته: رصداً وتشخيصاً وتفسيراً وتقويماً.

كما لم يكن استدعاء د./ بنت الشاطئ لآيات القرآن الكريم إلا استدعاءً لجوهر القيم الإسلامية والسنن الإسلامية في الحياة والكون والعمران والبشر، والتي تحكم المسار، ومن ثم فإن الابتعاد عنها يفسر ما أضحى عليه واقع الأمة وحالها، فلقد كان الدين سر قوة هذه الأمة.

وليس أدل على رؤيتي هذه عن منهج د./ عائشة كشاهدة عصر من كلمات د./ عائشة ذاتها. فإذا كنت قد طرحت في بداية قراءاتي في المقالات "العينة" أسئلة لترشيد منهج التعليق، وإذا كنت قد سجلت على التوالي النتائج من واقع القراءة المتسلسلة في المقالات المتتالية زمنياً، وإذا كانت الصورة عن منهج د./ عائشة قد قاربت على التبلور مع اقتراب نفاد المقالات، إذا بي ومع المقالين الأخيرين كأني كنت على موعد مع أستاذتنا.

كأنها أرادت أن تقدم لي بنفسها إجابة الأسئلة التي انطلقت منها قراءتي والتي سجلتها في المقدمة، والتي قدمت في ضوئها مجموعة النتائج السابقة. وجاءت إجابتها على خطوتين:

فمن ناحية، وفي مقال تحت عنوان "لقاء مع التاريخ في الجهة المغربية" (98/1/6) وعلى هامش تسجيل انطباعاتها عن رحلتها إلى المغرب (خلال العام الأخير من حياتها) وصفت تلاميذها بأنهم "أساتذة لجيل خلق لزمان غير زماننا، فنحن الذين ننتمي إلى المدرسة الإسلامية السلفية منهجاً وسلوكاً في زمان شائه يرجم الأصولية المتشددة في الدين ويصمها بتطرف في الإسلام" وبعد توقف عند قمة طهران وجولات أولبرايت لاحتوائها استأنفت د./ عائشة قائلة: "..ويجهدني التفكير في موضع أبنائنا شباب علماء القرويين وموقفهم من تلاميذهم وقد خلقوا لزمان غير زماننا.. في زمان يلغو بفرية الدين أفيون الشعوب.. في زمان يلهج باستنساخ النعاج.. في عصر السيدة الأميرة ديانا وجالكين أوناسيس..". ولذا تصل إلى التساؤل: "ماذا عسى أن يكون موضع المدرسة الإسلامية ومن ينتمون إليها في زمان بليد يلقي بتبعات ما نحن فيه على مقولة التطرف في الدين الإسلامي"؟

ومن ناحية أخرى، وفي واحدة من آخر مقالات لها والتي أعادت نشرها "الأهرام" في بابها الرمضاني عقب وفاتها، والتي كانت قد وضعت عنواناً لها: "قراءة جديدة في الإسلام وقضايا الإنسان" (الأهرام 1998/12/19)، تقدم د./ عائشة مفهومها عن العصر وموضعها منه (وهي تلميذة المدرسة الإسلامية ولاءً ومنهجاً وانتماءً). ولا يسعني هنا أن أنقل عدة سطور أو ألخص بعض

التفصيل. ولذا أرفق النص الكامل لهذا المقال، فهو خير خاتمة وخير معبر عن منهج بنت الشاطئ "شاهدة عصر" . رحم الله بنت الشاطئ المكلومة المحزونة على حال أمتها.

قائمة المصادر

قائمة المقالات (العينة):

التقويم الإسلامي بالهجرة ومدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الديني (2)، الأهرام، 1990/9/8.

قبس من نوره بين محاق وهلال، الأهرام، 1992/3/5.

الإسلام والمبادئ الكلية للأخلاق- عبرة الأيام وحديث المواسم، الأهرام، 1992/3/6.

الإسلام والمبادئ الكلية للأخلاق- الآداب والأخلاق في الإسلام (2)، الأهرام، 1992/3/8.

عيد فطرنا زكاة ودعاء وصلاة، الأهرام، 1992/4/4.

أهكذا نحن، الأهرام، 1992/5/8.

بعد عام إسبانيا- حضارة ثمانية قرون للإسلام بالأندلس أهذا ما بقي لنا منها، الأهرام، 1994/1/20.

المرأة وتاريخ الإسلام الحضاري- عاشر رمضان وتداعي الذكريات، الأهرام، 1994/2/28.

قراءة في تاريخنا- كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا، الأهرام، 1994/3/31.

رسالة الإسلام الحضارية- مع المصطفى بشرا ورسولا يوم الرحيل، الأهرام، 1994/3/24.

قراءة في ملف الهجرة (3) مدخل الإسرائيليات إلى فكرنا الإسلامي- مرحلة التحضير، الأهرام، 1995/9/14.

قراءة في ملف الإسرائيليات والتأريخ للإسلام بالهجرة (5)، الأهرام، 1995/9/28.

قراءة في تاريخنا: الإسلام في طريقه من الحديبية وخيبر إلى كسرى وقيصر ومصر، الأهرام، 1996/4/25.

حرية العقل والرأي (2)، الأهرام 1997/1/27.

البدريون في وجدان الأمة وضميرها، الأهرام، 1997/1/30.

مع المصطفى من مولده إلى مبعثه- (1) اليتيم الهاشمي الرضيع، الأهرام، 1997/7/31.

مراجعات للرؤية التاريخية من الموقع الديني بثغر دمياط، الأهرام، 21/ 1997/8.

لقاء مع تاريخ الإسلام في الجبهة المغربية، الأهرام، 1998/1/5.

لقاء مع تاريخ الإسلام في الجبهة المغربية، الأهرام، 1998/1/6.

المصحف الشريف لواء المسيرة، الأهرام، 1998/1/12.

التواصل بين المغرب ومصر، الأهرام، 1998/3/12.

قراءة جديدة في قضايا الإنسان، الأهرام، 1998/12/19.